الألوهية فی کتاب الوسطية والاعتدال عند مذهب الكونفوشيوسية

Theology In The book «the Doctrine of the Mean» In Confucianism

مريم سليمان[i] د.أحمد جان الأزهری [ii]

Abstract

"The Doctrine of the Mean" (Chinese:中庸, ChungYung in Wade-Giles Romanization) is both a doctrine of Confucianism and also the title of one of the Four Sacred Books of Confucian philosophy. The text is attributed Zi Si (also known as Kong Ji 483-402 Bc), the only grandson of Confucius. It was published as a chapter in the classic of Rites.

This article deals with the theological thought in «The Doctrine of the Mean», the meaning of Oneness of God " TIAN " (天), and the mandate of Heaven in Confucianism have been highlighted with depiction of main philosophical terms of " Xing" (性) THE NATURE, and"Dao" (道) THE PATH, and "Jiao"(教) INSTRUCTION.

***Key Words**: God, Doctrine, Confucianism, theological thought*

نبذة التاريخية:

إنّ مذهب الكونفوشيوسية كانت ترجع منابعها عامةً إلى حضارة الصين القديمة التی امتدت من عهد الملك العظيم " هوانغ دي " (2717ق.م – 2599 ق.م) 9 ، كما تعود أصولها خاصةً إلى ثقافة أسرة " تشو" الغربيّة (1066 ق.م –771 ق.م) . ولما جاء كونفوشيوس فی القرن السادس قبل الميلاد، قام بمذهبه المشهور على أساس جمع وتلخيص ووراثة هذه الثقافة القديمة، وقدّم لأهل الصين الأسفار الخمسة. ثم خطا أتباع كونفوشيوس السابقون الذين من خلال قرنين ونصف بعد وفاته على خطواتِه، وأكملوا قواعد مذهب مرشدهم شرحا وتطويرا، متمثّلا بظهور الكتب الأربعة. و قد أثّر مذهب

[i] الأستاذة الزائرة فی قسم مقارنة الأديان، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد

[ii] استاد الدكتور في كلية أصول الدين،بالجامعة الإسلامية العالمية، اسلام آباد

الكونفوشيوسية تأثيرا بليغا منذ نشأته فى حياة أهل الصين من كلّ جوانبها الفردية والاجتماعية والسياسية، كما أثّر فى كثير الدول فى شرقىّ آسيا وجنوبى شرقها لمدة طويلة حتى يومنا الحاضر.

وكانت الأفكار الاعتقادية لمذهب الكونفوشيوسية تتركّز على ثلاثة جوانب: الأوّل منها – عبادة " السماء (تيآن 天) " الأعلى، كان قدماء الصين يؤمنون بأنّ " السماء (تيآن 天) " الأعلى هو الوجود المطلق، وهو مُوجِد الكائنات كلّها ومالكها ومدبّرها الأكبر بصفة رب الأرباب. والثانى– تأليه الملائكة والجنّان، كان قدماء الصين يعتقدون بأنّ الملائكة والجنّان هم أرباب النجوم والجبال والأنهار والغابات والبيوت وإلخ، وهم فى مكانة ثانوية يساعدون " السماء (تيآن 天) " – الإله الأعلى المطلق– على تدبير شؤون العالم وعلى نفع الناس وضرّهم. والثالث– تقديس أرواح الآباء الأسلاف، كان قدماء الصين يقولون بوجود أرواح الإنسان وأزليّتها، ويعتقدون بأن آباءهم الأسلاف الصالحين إذا توفّوا فارتفعت أرواحهم إلى السماء تراقب على معيشة ذُرّيّتهم الخلف وأعمالهم خيرا أو شرّا.

وقد اهتمّ مذهب الكونفوشيوسية بمجال مكارم الأخلاق اهتماما مبالغا، حتى يجعلها عنصرا أساسيا فى كيان الإنسانية وكمالها. وكان كونفوشيوس يركّز نظريته الأخلاقية على فكرة " الرحمة 仁 "، التى تعتبر جامعَ مكارم الأخلاق ومعيار الإنسانية الصالحة عند مذهبه. وقال بأن أساس فكرة " الرحمة " هو حبّ الناس، وكان رأسه برّ الوالدين واحترام الإخوة الكبار[1]، وادّعى بأن صاحب الرحمة هو الإنسان بكلّ معنى الكلمة[2]. بل فى نظر كونفوشيوس، كانت فكرة " الرحمة 仁 " جامعَ مكارم الأخلاق ولبّ كنوزها، تشتمل على كلّ الأخلاق الحميدة وفضائلها من الصدق والإخلاص، العدل والحكمة، الأمانة والشجاعة، البرّ والتسامح، الجدّ والتواضع، السخاء والانسجام، إلخ[3]. وترى الكونفوشيوسية أن الإنسان بطريق تحقيق فكرة " الرحمة " يمكن أن تشرق فطرته البشرية وتكملها، فمحبة الناس هى التجسيد الأعلى لفكرة " الرحمة "، ومن أجل تحقيق هذا الهدف الخلقى، أشار كونفشيوس إلى منهاج الوسطية والاعتدال فى معالجة كلّ الأشياء، أى معالجة الأشياء بأسلوب مناسب ومعتدل دون شطط، إذ قال : " إذا زاد الشىء عن

الحدّ انقلب إلى الضدّ[4] فكلّ شيء يخالف منهاج الوسطية والاعتدال مصيره الفشل، سواء تجاوز الحدّ أو لم يصل إليه.

تلبية لدعوة فكرة " 仁 " الرحمة إلى حبّ الناس وتحسين معاملاتهم فرديا واجتماعيا، كان مذهب الكونفوشيوسية أسس نظام " 礼 الآداب " على أساس قاعدتين أساسيتين – تقريب ذوى الرحم والنسب وتعزيز ذوى العزّة والسلطة، وشرع لأهل الصين المبادئ الخمسة الاجتماعية فى تنظيم علاقاتهم الأخلاقية بعضهم بعضا، وهى : المبدأ الأول : علاقة الزوجين، فعلى الزوج بالعدل ويقابله الزوجة بالطاعة. المبدأ الثانى: علاقة الأب والابن، فعلى الأب بالرأفة ويعامله الابن بالبرّ. المبدأ الثالث: علاقة الإخوة، فعلى الكبير بالمودّة ويقابله الصغير بالاحترام. والمبدأ الرابع: علاقة الأصدقاء، فعليهم يتعاملون بالوفاء والأمانة. المبدأ الخامس: علاقة الملك والوزراء، فعلى الملك بالآداب والإحسان ويقابله الوزراء بالصدق والإخلاص[5]. وعلى أساس المبادئ الخمسة الاجتماعية هذه، استنبط مذهب الكونفوشيوسية ورتّب سائر فصول نظام الآداب وجزئياته الذى يعمّ ويستيطر جميع جوانب الحياة الإنسانية خلقيا وسلوكيا، ممّا تأثرت به بلاد الصين لمدة أكثر من عشرين قرنا حتى يومنا هذا[6].

تعريف موجز عن الشيخ " تسْ سى":

كان " تس سي" من كبار المفكرين في بداية عهد الممالك المحاربة (475 ق.م– 221 ق.م) فى تاريخ الصين القديم. ولد فى السنة 483 ق.م، وهو حفيد الحكيم كونفوشيوس مؤسّس المذهب، وعاش يتيما وقد تلقىّ تعليماته الإبتدائية الكونفوشوسية من جدّه فى طفولته، ثم تتلمذ لتلميذ جدّه المشهور " تسنغ تس" (505 ق.م– 436 ق.م) صاحب كتاب المعرفة الكبرى، وكان مونشيوس (372ق.م– 289ق.م)– المعلمّ الثانى عند الكونفوشيوسية وصاحب كتاب مونشيوس– يعتبر الشيخَ " تس سى " مرشدَه الروحي و مصدره الفلسفى. وبفضل هؤلاء الأربعة العظماء المتتابعين تمّتْ سلسلة الأصالة العلمية التى تدور حولها أفكار مذهب الكونفوشيوسية جميعها.

وكان " تس سي" مع ارتفاع شهرته قريبا وبعيدا بلاده، دُعى إلى المنصب العالى وهو رئاسة الوزراء فى إمارة وطنه، ولكنه لم يقبلها متعفّفا ولم يشترك فى شؤون السياسة، بل انهمك فى مجال التدريس والتأليف طول حياته. وأما مؤلفات " تس سى "، حسب

سجلّات المصنفات والفنون فى حوليات أسرة " هآنْ " الغربية (206 ق.م- 24م)، كانت له ثلاث وعشرين مصنفا، ولكن معظمها مفقودة قبل القرن الثانى قبل الميلاد، ولم تصل إلينا، إلا بعض الرسائل المحفوظة فى سفر الآداب، وكان من هذه الرسائل كتاب الوسطية والاعتدال الذى هو بصددنا هنا.توفى الشيخ " تس سى " فى السنة 402 ق.م ، ودفن فى مسقط رأس آبائه مدينة " تشيو فو "[7].

تعريف كلمة " السماء (تيآن 天) " لغةً في الصينية

إن اللغة الصينية لغة وحيدة بين جميع اللغات فى العالم، وهى لغة رمزية تصويرية تكتب ألفاظها بنظام كتابة فكرية من اليسار إلى اليمين ومن أعلى لأسفل، فكل جزء من أجزاء اللفظ الواحد يرمز إلى معنى خاصّ ومدلول مستقلّ.

فكلمة " السماء (تيآن 天) " فى اللغة الصينية يتكون لفظها من الجزأين: الجزء الفوقيّ والجزء التحتيّ. وجزءه الفوقيّ يرمز بمقطعٍ مستقلٍّ بخطٍّ " 一 " عبارة عن معنى الواحد بنطق " يِى"، وأما جزءه التحتيّ فيرسم من مقطعٍ آخر بثلاثة خطوط " 大 " عبارة لمعنى الكبير بنطق " دَا ". فيفيد من هذا التشكيل للفظ " السماء (تيآن 天) " بهذين الجزئين الفوقيّ والتحتيّ معنى " الكبير الواحد ". وقد وضعت هذه الكلمة حرفيّا فى اللغة الصينية ليرمز معنى القمّة كرأس الإنسان، فتُستعمل ويعمّ مدلولها على جميع المعانى للسموّ والعلوّ[8].

وعلى هذا الأساس، إذا أطلق كلمة " السماء (تيآن 天) " مقيّدة خاصّة، فالمراد بها السماوات المرئية المقابلة للأرض. وأمّا إذا استعملت مطلقة عامة، فالمراد بها– من حيث اشتقاقها المادية – الطبيعةُ البيئية والعالم الكونىّ، كما تدل كلمة " السماء (تِيآن 天) " – من حيث اشتقاقها المعنوية – على وجود الذات أو الجوهر الأول (تَىْ يِى). وذلك لما يضمّ فيه دلالة الكلمة " السماء (تيآن 天) " على جميع المعانى السامية والغائية[9].

ولم تقتصر كلمة " السماء (تيآن 天) " على دلالتها لهذه المفاهيم المادية والمعنوية فحسب، بل ينتهى استعمالها فى اللغة الصينية لتسمية الكائن المطلق والموجِد الموجودات أي الإله الأكبر، عبارة عن كينونته الألوهية العليا ومجازا لوجوده الربوبية الأقصى. وذلك يعرض فيما يلى :

تعريف كلمة " السماء (تِيآن天) " اصطلاحا

إنّما لفظ " السماء (تِيآن天) " كان كلمة مقدسة فى اعتقاد قدماء الصين، وهي كلمة تحمل معنى الألوهية الكبرى، وقد كانوا يعتقدون بأن " السماء (تيآن 天) " هو الإله الأعلى والمالك الأكبر الذى أوجد الإنسان وسائرالموجودات في العالم كله[10].

وكثيرا ما نجد هذه العقيدة ب " السماء (تيآن 天) " باعتباره الإله الأكبر فى الكتب المقدسة القديمة من الأسفار الخمسة والكتب الأربعة للكونفوشيوسية تتحدّث عن هذا الموضوع. وكان أشهر النصوص التي يُستدلّ بها ويُورد في هذا الموضوع، هو الشِعر " عن الإنسان " من سِفر القصائد 23 حيث قال الشاعر: " أوجد ' السماء (تِيآن天) ' إنسانا، ودبّر له القواعد لشؤونه؛ ليتمسك بها عروةً وثقى، فيميل البشر إلي الفضائل فطرةً. [11]"

كما كان في نظر قدماء الصين أن " السماء (تيآن 天) " باعتباره الإله الأكبر والربّ الرازق، يجب علي الإنسان ألّا يكف بتقديم طقوس العبادة الخاصة والإقامة برسوم القربان المطلوبة فحسب، بل ينبغي عليه أيضا أن يطيعوا ويسلموا لإرادته وأوامره المخطوطة للإنسانية الكاملة والمجتمع المثالي بإظهار الأخلاق الحميدة والقيم الفاضلة.

وكان سفر الوثائق أقدم سجّيل بين الأسفار الخمسة المقدسة، يسجّل أهم المواعظ التعليمية وأبرز السِيَر المرشدة من الملوك الحكماء القدامى التي امتدّت تاريخهم بين القرن الثالث وعشرين قبل الميلاد وبين القرن السابع قبل الميلاد. وجدنا من هذه النصوص والسير التراثية كثيرا من الموضوعات والعبارات تتحدّث عن " السماء (تِيآن天) " كالإله الأكبر والمالك الأعلي في إرادته وأوامره للإنسان والمجتمع.

وعلى أساس المثل المعروف الذي قال: " الناس على دين ملوكهم "؛ يوجّه سفرُ الوثائق مواعظَه التعليمية دائما إلى الملوك والرُعاة نصيحة وإرشادا، كما وجدنا من سطور هذا السفر المقدس كثيرا من المواعظ الإملائية تتوجّه إلي الشعوب والرَعايا إعلانا وتأديبا.

وعلى سبيل المثال نورد بعض النصوص المشهورة من هذا السِفر تتحدّث عن إرادة " السماء (تِيآن天) " باعتباره الإله الأكبر وأوامره بالأخلاق والفضائل موعظةً للرُعاة خاصة ومؤدّبةً للرَعايا عامة. فلنأتِ أولا إلي القرن الواحد وعشرين قبل الميلاد ونستمعْ إلى نصائح الملك الحكيم الفاضل " شون " لخليفته الشوري وولىّ عهده " يُو "،

وهو يعظه بالأخلاق والفضائل قائلا : " تعال يا ′ يُو ′ واسمع، فعندما يحيط بنا الطوفان الكبير ابتلاءا محذورا، قد وفيتَ بوعدك لخدمة الشعوب ونجحتَ في رسالتك لترويض الطوفان. فلا أحدَ أفضل منك في ذلك قطْ ! وأحسنتَ في إدارة شؤون الدولة بجدّ واجتهاد، وعففتَ في عيالة معيشة أسرتك بكدّ وقَشَف، ولم تفخترِ بمكانتك العالية ولا تتكبّرمن فضائلك الحميدة. فلا أحدَ أصلح منك في ذلك قطْ ! وإذا لم تفتخر بأفضليّتك فلا أحدَ أفضل منك فيها، وإذا لم تتكبّر بنجاحك فلا أحدَ أنجح منك فيه. فمكارم أخلاقك هذه تستحقّ منّي مدحا، ومحاسن فضائلك تلك تستحقّ منّي ثناءا. لقد نزل عليك السماءُ (تِيآن 天) حظّا عظيما وقدّر لك أن ترث منّي سلطةً ومُلكا. أَ ليس المِلك راعيا مرغوبا عند الشعوب؟ أَ وليس الشعوب بمعتمدين لدي المِلك؟ بدون الراعي فمَن يقتدي به الرعيّة؟ وبدون الجمهور فمَن يعتمد عليهم المِلك للدفاع عن البلاد؟ فَكُنْ متواضعا دائما! واتقّ من عظمة كرسيّ الملك، وأَدِّ واجباتك احتراما لإجابة مطالب الرعيّة وحوائج الشعوب. وإن ضاق علي الجمهور من أنحاء البلاد معايشهم وشقّتْ شؤونهم، فسيقطعك " السماء (تِيآن 天) " عن الحظّ والنعمة بتّةً.[12]"

فالعقيدة ب " السماء (تِيآن天) " كالإله الأكبر والمالك الأعلى وطاعته بالامتثال الأخلاق والفضائل، تتأصل –كما أشار إليها هذا النص المذكور– في حضارة الصين العريقة، واشتهرت هذه العقيدة في تاريخ الفلسفلة الصينية بفكرة " إظهار الأخلاق الإنسانية الحميدة لتلبية عناية السماء (تِيآن天) وأوامره (順天以德)."
وبرزت هذه الفكرة اعتقاديا وفلسفيا بشكل أشمل وأقوي في عهد أسرة " تشو" الغربية (١٠٧٧ق.م–٧٧١ق.م)، حتي تصبح برنامجا أساسيا للملوك والحكّام فى المجال الأخلاقى والسياسى. وذلك كما حدث للملك الثاني الشابّ لهذه المملكة الناشئة في مناسبة اعتلاء عَرشه في عاصمته الجديدة، فنصحه عمُّه الأميرُ " شَأَوْ قُونغْ " ويقول: " إنّما " السماء (تيآن 天) " المقدس المالك الأعلي قد حرّم أسرةَ ′ شِيآنغ [13] عن حظّ مملكتهم الكبيرة وخلع كرسيَّ الملك عنهم، كما قدّر لك " السماء (تيآن 天) " المقدس ملكوتا وسلطانا وكثّر لك سعادة ونعمة، فلا تنسَ رسالتك في رعاية الشعوب ولا تهملها، فلن تحصل على كل ذلك إلّا أن تحافظ نفسك علي الحذر والورع دائما[14]. ثُمّ بيّن أسباب الحرمان عن العرش والعزة لأسرة الملوكية السابقة بأنّ أواخرهم قد تركوا مكارم

الأخلاق، وفقدوا محاسن الفضائل لسلفهم الخيار، بل طَغوا في الرذائل البغيّة على أنقسهم وعتوا بالسلوك الظالمة علي الرعيّة، فتركهم " السماء (تِيآن天) " وكسّر مملكتهم عذابا وعقابا حتي بدّلهم بأجيال صالحين خبرةً وعبرةً.

فقال الأمير " شَأَوْ قُونغْ " لملكه الشابّ نصيحة وشجّعه علي الأخلاق والفضائل عبرةً وهو يقول: " يا صاحب الجلالة، أنت ملك شاب وجديد في مسؤوليتك العظيمة. كمثل الطفل في بداية حياته يحتاج الى تعليمه بالحكمة والأسلوب الحسن وقد سعدت بحظ وافر من ذالك، وها فالآن يرزقك " السماء (تِيآن天) " الحكمةَ المبينة ويمنحك البركاتِ الممدودة ويهبك الحظوظَ السعيدة، إذ عرف " السماء (تِيآن天) " أنّك يا ملكنا الشاب قد جلست علي كرسيِّك ناشئا ونقلت إلي عاصمتك جديدا. أَفلا يسارع ملكُنا في الورع والأخلاق الفاضلة نتيجة هذه البركات والنعم السماوية التى منحها لك؟ فإذا أدّي ملكُنا واجباته نحو الرعيّة بالورع والفضائل فليدعُ " السماء (تِيآن天) " المقدس يمدّد حظّه ويباركه للأبد[15].

وعندما جاء كونفوشيوس قبل القرن السادس من الميلاد، لم يرث هذه العقيدة من الأسلاف فحسب، بل أقام نظريات مذهبه علميا وعمليا على أساس هذه العقيدة الوراثيّة، إذ طوّر فكرة " إظهار الأخلاق الإنسانية الحميدة لتلبية عناية السماء (تيآن 天) وأوامره (天德以) "، فجدّدها وركّزها علي إطار مذهبه بفكرة " الرحمة (رِين 仁) "، حتى يطبقها الإنسان في حياته الواقعية، ماشيا علي أساس طريق الحق، عائدا إلي طبيعته الفطرية، وعارفا بإرادة السماء وعنايته أخيرا. وهذه الموضوعات الأربعة هي المجالات التي تتناولها الاصطلاحات الأربعة في هذا النص وهي: " السماء (تيآن 天) " – فطرة الإنسان– طريق الحقّ– التعليم والتربية، يدخل فيها كل ما يحتوى أفكار الكونفوشيوسية من العقائد الدينية والآداب السلوكية والقيم الأخلاقية.

بعد أن بيّنّا الكلمة " السماء (تيآن 天) " لغة واصطلاحا مع توضيح الاعتقاد به كالإله الأعلي، يسهل لنا أن نفهم مراد الجملة الأولى وهى: " إنّما أمره " السماء تِيآن 天) للإنسان يسميّ بالطبيعة الفطرية "، لأن " السماء (تِيآن天) كموجِد العالم بما فيه من الإنسان والموجودات الآخري كله، وهو ربّ السماوات والأرض، وهو الذى وضع الطبيعة الفطرية راسخا فى كيان الإنسان وسائر الموجودات. وهذا ما اتّفق عليه جميع

العلماء في الكونفوشيوسية منذ بداية الأمر. وأما طريق الحقّ (دأو 道) في هذا النص من حيث سُنيتها الخالدة وحقّانيتها الكاملة، تُطلق وتُفهم عند مذهب الكونفوشيوسية من جانبين: الجانب العامّ والجانب الخاصّ.

ومن جانبها العامّ تُسمّي بطريق الحقّ الكونية، وهي تتحدّث عن وجود العالم وكيفيات كيانها. وكان سِفر التبدّلات من الأسفار الخمسة كتابا خاصّا يتحدّث عن طريق الحقّ الكونية وكيفيّاتها[16].

وإذا أطلق كلمة طريق الحقّ (دأو 道) خاصّا تُسمّي بطريق الحقّ الإنسانية، وهي تتناول مجال الإنسانية بعينها من جوانبها المتنوعة، التي تتمثل في نظريات القيم والأخلاق وفي معارف الإنسان بما حوله من البيئة والمجتمع فكريّا وعَمليّا. وهذا الاستعمال الخاص هو الصدد للبيان والدراسة هنا بعينه، إذ كانت مناسبة التعبير في النصّ " إنّ ما أمره " السماء (تِيآن 天) " للإنسان يسمىّ بالطبيعة الفطرية، واتباع الإنسان لهذه الطبيعة الفطرية والاهتداء إليها يسمّى بطريق الحقّ (دأو 道)، وتهذيب الإنسان وتزكية نفسه بطريق الحقّ يسمّى بالتعليم والتربية(جَأَوْ 教)." تدلّ هذه الجمل من النص على أنّ كلمة طريق الحقّ هنا يخصّ ويأكّد بجانبه الإنساني خصوصا بالذكر والبيان.

وكان طريق الحقّ الإنساني عند مذهب الكونفوشيوسية يتكون من ناحيتين: الناحية الخُلقية الباطنة والناحية السلوكية الظاهرة. كانت الأولى تتمثّل بفكرة الرحمة[17]، وهي جامع الأخلاق الحميدة والفضائل السامية؛ وأمّا الثانية فتتمثّل بنظام الآداب [18]، وهي قطب السلوك المستحبّة والمعاملات المعروفة.

فكيف يطبّق الانسان طريق الحق هذا بناحيتيه العلمية والعملية في حياته اليومية حتي تنجح هذه المثالية العليا الإنسانية وتصبح واقعية؟ فذلك الموضوع سيتناوله مجال التعليم والتربية لاحقا، ويذكر في النص بقوله: " وتهذيب الإنسان وتزكية نفسه على طريقة الحقّ يسمّى ب ' التعليم والتربية (جَأَوْ 教).' " وتفصيله كما يلي:

وفي نظر مذهب الكونفوشيوسية أن الإنسان مع خَلقته على الفطرة السليمة، وميله إلى الأخلاق الحميدة تلقائيا، ولكن لما جاء إلى هذا العالم المادىّ غرّته الحياة الدنيا، وهَبّت في نفسه الأهواء والشهوات من حبّ الغنى والجاه، والرغبة في التُرف

والأنانية وما عداه من الأخلاق المذمومة. كما كشف سفر الآداب أسباب ذلك قائلا:" الإنسان وُلد على السكينة والسلام، كان شأنه هذا من فطرته السماوية؛ ولما أثّر فيه البيئةُ الخارجية المادية وتأثّر بها، يصبح أمره ذلك من غريزة طبيعته. تأثير البيئة المادية ومعارف الإنسان ومشاعره بها، كلّ ذلك يسبّب شهوات الرغبة والكراهة فى نفس الإنسان. وإذا تجاوزت هذه الشهوات والغرائز حدودها فى نفس الإنسان باطنا، وحفزتْه معارفه ومشاعره المادية ظاهرا، ولم يحاسب نفسه فى وقته، فسيضيع منه طريقُ الحقّ هدايةً ويفقد فطرتَه السماوية مرجعا[19].

والإنسان بسبب استجابته للأهواء النفسية وتأثّره بالشهوات المادية طغي على فطرته السليمة، ويأدّي ذلك إلى غلبة الأخلاق المذمومة على الأخلاق المحمودة، ممّا يوقِع نفسه فى التنازع والتنافس لإشباع الشهوات والأهواء خاصّةً، وينحط المجتمع من الأمن والسلام إلى الشقاء والضرّاء عامّةً. وذلك كما حدث فى عهد كونفوشيوس وشهد بنفسه من ثوران الدولة وفتن المجتمع، فادعى كونفوشيوس وأتباهه بأهمية التعليم والتربية فى تحقيق فكرة الرحمة وتطبيق نظام الآداب وفاقًا لمطالب طريق الحقّ وعودةً إلى فطرة الإنسانية السليمة، واتخذوا مشروع التعليم والتربية أساسا واقعيا تعتمد عليه هذه المقاصد المثالية كلّها.

وعندما جاء وارثه الروحيّ والنسبيّ حفيده " تْس سِى " مؤلّف كتاب الوسطية والاعتدال، ورث من جدّه أفكاره الفلسفية وضمّنها فى كتابه " الوسطية والاعتدال " وعبّرها بأسلوب الفلسفة الميتافيزقية. فنجده أرجع الربوبية الأعلى والملكوت المطلق– كبديهيّة صريحة بدون شكّ وريب – إلى " السماء (تيآن 天) "، واتّخذه مرجعه الأسمى الذى يبنى عليه مبادئ كتابه اعتقاديا وأخلاقيا وميتافيزيقيا، وهو يقول فى أول جملة لبداية الكتاب قائلا: " إنمّا وهبه ' السماء (تيآن 天) ' للإنسان يسمىّ بالطبيعة الفطرية. " فأعقب على هذه البديهيّة الأوليّة ما نصّ تاليا: " وإتباع الإنسان لهذه الطبيعة الفطرية يسمّى بطريق الحقّ، وتهذيب الإنسان وتزكية نفسه على طريق الحقّ يسمّى بالتعليم والتربية." ثمّ يدور المؤلّف بكتابه من خلال ثلاثة وثلاثين فصلا على هذه المقدمة البديهيّة الأولى كمحور رئيسيّ لكلّ تأليفه شرحا واستنباطا، حتّى يختم تصنيفه بجملة أخيرة فى نهاية الكتاب وهو يقول مستوردا ما ذُكر فى سفر القصائد: " ' إنمّا أثر السماء

(تِيآن天) فى خلق الكائنات وعنايته لها لا صوت يسمع ولا رائحة تشمّ. ' ها هو المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق يُضرب." وهو يسترجع بهذه الخاتمة الرنّانة دعوة المقدمة البديهيّة الأولى فى بداية الكتاب استكمالا. بل أكّد المؤلّف " تْس سِى " العلاقة المتلازمة بين هذه العناية الربانية السماوية وبين عاقبة صاحب مكارم الأخلاق تأكيدا مرارا، وخاصة فى الفصل السابع عشر حيث قال: " فمَن يزرع حسنة يزده السماء الأعلى فضيلة ونعمة، ومَن يأتِ إلى السيئة يزده خسارة وهلاكا. وهذا كما قال سِفر القصائد فيه: يا له من الرجل الفاضل فرحا وبشرا، ما أظهر أخلاقه حسنة وكريمة ! أمّن بفضلها شعوبَه سلاما ووفاقا، كُتب عليه نعمة وبركة عظيمة. فقُدّر له أن ينال العزّة والسلطة، سُنّة السماء الأعلى قدرا مقدورا. فهذا البيت دليل عندهم على أنّ صاحب الأخلاق العظيمة كُتب عليه عناية السماء (تيآن天) الأعلى ونصره[20].

وعلى هذا الاعتقاد برُبُوبيّة السماء (تيآن天) الأعلى، أسّس عليها المؤلّف " تس سي " كل نظريّاته الفلسفية، فمِن ناحية المنهجية يدعو إلى منهاج الوسطية والاعتدال[21] عن طريق الحذر والورع الذاتيّ؛ ومن ناحية الأخلاقية يدعو الناسَ إلى إثبات أقدامهم فى الأصول الثلاثة الكبرى (الرحمة والحكمة والشجاعة) أولّا حتى يتدرّجوا إلى جميع مكارم الأخلاق ترقية؛ ومن ناحية الاجتماعية ينصب روح إكمال الإنسان شخصية نفسه أولّا وإكمال شخصية غيره ثانيا على أساس المبادىء الخمس العامّة؛[22] ومن ناحية السياسية يرغّب الحاكمَ فى تطبيق السياسة الرشيدة على أساس القواعد التسع المعتمدة؛ [23]ومن ناحية الأنطولوجيا والمعرفة يدعو إلى ضرورة صفة الصدق والإخلاص فى وجود الكائنات وتطوّراتها وخاصة إلى أهمية صفة الصدق والإخلاص فى تهذيب الإنسان نفسه علميا وعمليا[24].

ومن الجدير بذكرنا في هذه المناسبة أنّ هناك بعض الباحثين المعاصرين فى مذهب الكونفوشيوسية لم يتّخذوا فى دراستهم موقفا موضوعيا كاملا، فمنهم مَن يرى أنّ الكونفوشيوسية لم يتناول العقيدة الألوهيّة والنظريات الميتافيزيقيّة، ويدّعون أنّه ما كانت أفكار مذهب الكونفوشيوسية وتعليماتها إلاّ القيم الخُلقية والآداب الاجتماعية تتركّزعلى الجوانب السلوكية في الحياة الإنسانية فقط. وهذا الرأى فيه نظر وتأمّل، ونقول: يبدو أن البحث في ذات " السماء (تِيآن天) " باعتباره الإله الأعلي وألوهياته الكاملة، لم

تكن أهم الموضوع الدراسي عند كونفوشيوس ومذهبه، أي لم يدخل صاحبه في هذه القضية عميقا، بل كان يتوقف باحتياط ويسكت عنها، وذلك كما قال تلميذه المشهور " تْس قُونغ "41 في هذه القضية: " يمكن أن تسمع فضائل الأستاذ وآدابه، ونادرا أن تسمع أحاديثه في طبيعة الإنسان وفي ذات السماء (تِيآن 天) وسنّته[25].

فهناك تساؤل، لماذا لم يتحدث كونفوشيوس نفسه عن القضية الألوهية وسكت عنها ؟

وقد أجابه العالم الممثّل باتجاه مذهب الكونفوشيوسية المعاصر " مُو زُنغ سآن (١٩٠٩م –١٩٩٥م) " وقال: " إنّ وجود السماء (تِيآن 天) وذاته قائم بنفسه موضوعيّا، وإنّ الحكيم (كونفوشيوس) غالبا لا يسرف وقته في الاستقصاء عن ذات السماء (تِيآن天)، ولا يدخل فيه ظناّ عقليا، إذ كان هذا الموضوع في الحقيقة لا يصل بعقل الإنسان وظنّه إلى معرفة حقيقته. وبهذا السبب قد ترك كونفوشيوس نفسه ذلك الموضوع جانبا، بل من جانب آخر فتح للإنسان بابا وهو التطبيق بفكرة الرحمة (رين 仁) والسيرعلى طريق الحقّ لمعرفة إرادة السماء (تِيآن天) وعنايته، حتّى يتصل الإنسان أخيرا به اتصالا خلقيا وروحيا[26]".

وإنّ هذه القضية أصبحت مجالا واسعا للبحث والدراسة في عهدئ أسرة سُونغ (٩٦٠م– ١٢٧٩م) وأسرة مِينغ (١٣٦٨م– ١٦٤٤م) بتاريخ الصين، وخاصة عند العلماء المتجّددين الكونفوشيوسيين[27].وكانوا على اتجاهين رئيسيين وقتئذ، وهما: اتجاه نظرية العقلية واتجاه نظرية القلبية. وكان العلامة جُو شِي (١١٣٠م–١٢٠٠م) ممثلا للاتجاه الأول، وقرينه العالم الشهير لُو جِيُو يُوان (١١٣٩م–١١٩٣م) ممثلا للاتجاه الثاني[28]، ولا حاجة لنا أن ندخل في دراستهم الفلسفيّة بالتفصيل، لأنّها لا تتعلق ببحثنا مباشرة حتى لا نطيل الكلام هنا.

الخاتمة

وجدتُ أنّ الكونفوشيوسية مع أنّها ديانة وضعية، فيه كثير من أفكارها الاعتقادية ودعواها الأخلاقية تقترب وتتّفق مع مبادئ دين الإسلام الحقّ ومطالبه الأساسية، وسبب ذلك يرجع إلى وجود بقايا الرسالة السماوية في هذه الديانة الوضعية، ولقد أنتجنا هذه النتيجة الدراسية استدلالا على كلّ من دلالة النقل ودلالة العقل.

وإيضا وجدنا وجود كثير من بقايا الرسالة السماوية فى مذهب الكونفوشيوسية وكتبها المقدسة. إذ ما كان الاعتقاد بربوبيّة السماء (تِيآن 天) بعتباره الإله الواحد الأكبر عند الكونفوشيوسية إلّا وهو يقترب ويتّفق مع مبادئ ربوبية الله تعالى فى دين الإسلام، وذلك كما قال سبحانه (وَهُوَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ [29] . وأيضا ما كانت دعوى الأخلاقية عند الكونفوشيوسية من الرحمة والعدل والحكمة والآداب والصدق وإلخ، إلا وهى تقترب وتتّفق مع مطالب الإسلام الأخلاقية وتعليماته المرشدة، وذلك كما قال خاتم الأنبياء محمّد صلّى الله عليه وسلّم: " إنمّا بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق[30].

فكلّ ما وجدناه ممّا يوافق مبادئ الإسلام وتعليماته الحقّة من يقايا الرسالة السماوية فى الكونفوشيوسية وكتبها المقدسة على وجه العموم، يمكن لنا أن نسمّيه بجانبَ الإيجابية لهذه الديانة الوضعية، وبه أدّيْنا واجبة الأمانة العلمية فى دراستنا الوصفية لكتاب الوسطية والاعتدال على وجه الخصوص. وأيضا من أجل أداء الأمانة العلمية يجب علينا أن نبيّن هنا– على ضوء الإسلام– جانب السلبية لمذهب الكونفوشيوسية، وخاصة في كتاب الوسطية والاعتدال، وعلى رأس جانب سلبيّتها هو ضلالهم فى مجال الألوهية بالشركات الوضعية من تأليه الملائكة والجنّان وتقديس أرواح الآباء وتقديم القرابين لهؤلاء جميعا[31]، ممّا يدلّ على اندساس الوضعية فى مجال الألوهية عند الكونفوشيوسية بجانب وجود بقايا الرسالة السماوية عندهم فى مجال الرُبوبيّة خاصة، وذلك كما كشف الله تعالى للمسلمين عن أحوال هؤلاء وقال سبحانه :

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [32]

ويكفينا أن نذكر هنا جانب السلبية للكونفونشوسية ببيان خطأهم فى مجال الألوهية على سبيل المثال، لكى لا نطيل الكلام تكررا، وممكن للقرّاء الرجوع إلى المباحث المتعلقة بهذا الموضوع بتفصيل[33].

الحواشي والهوامش

1 موسوعية الفلسفة الصينية الكبرى، بتحرير تشآنغ دائ نيآن، الصفحة 149، مطبع الموسوعية بشيآنغهاى، الطبعة الأولى، السنة 2011م

2 الملك العظيم "هوانغ دى (2717ق.م- 2599 ق.م) "، يعبتره أهل الصين مؤسسا لحضارة الصين، وهو اوّل ملك يوحّد ثقافيا وسياسيا بين القبائل المختلفة فى بلاد الصين وقتئذ.

3 كان كونفوشيوس يعبتر عهد أسرة " تشو " الغربية- وخاصة بنظام آدابها الكاملة- أزهر المراحل الثقافية وأنضجها فى تاريخ الصين القديمة.

4 كتاب الحوار بترجمة الأستاذ محمد مكين، الفصل ٢٢، الصفحة ١٧٤، والفصل 1، الصفحة ٢. دار هواتشنغ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2009م.

5 كتاب الوسطية والاعتدال بشرح العلامة جو شى، الفصل ٢٠، الصفحة ٣٤. المطبع الشعبى بمقاطعة شيآن شى، الطبعة الأولى، سنة 1988م

6 النصوص التى تتحدث عن فكرة " رحمة " ومضمونها تنتشر فى كلّ فصل من فصول كتاب الحوار، فممكن للقرّاء الرجوع إليه.

7 كتاب الحوار بترجمة الأستاذ محمد مكين، الفصل 11، الصفحة 150.

8 مدينة " تشيو فو " تقع فى مقاطعة شيآن دونغ بشمالى الصين، وبها معبد أسرة كونفوشيوس ومقابرهم.

9 موسوعية الفلسفة الصينية الكبرى، تشآنغ دائ نيآن، الصفحة 429.

10 مجموعة الأحاديث للعلامة جُو شِى ، الجزء الأول، الصفحة 225. دار مكتبة الصين، الطبعة الأولى، السنة 1986م.

11 كتاب شرح الألفاظ وبيان الكلم، ل " شو شين " (٥٨ م–١٤٧م)، مطبعة الكتب التراثية بشيآنغهاي، الطبعة الأولي، سنة ٢٠٠٣م، الصفحة ٤٦.

12 سفر القصائد، يرجع تاريخ أقدم مضمونه إلى القرن الأحد عشر قبل الميلاد. وقد أعاد كونفوشيوس نظره فيه ورتّبه نهائيا، وهو يحتوى على ثلاثمئة وخمسة شعررسميا وعامّيا، يتناول المجالات المختلفة فى حياة قدماء الصين علميّا وعمليّا.

13 كتاب القصائد بشرح سون فون مئى، الصفحة ٢٤٣، دار الطباعة للعلوم الدينية، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٩م.

14 سفر الوثائق. الصفحة ٢٥–١٨، مطبعة الجامعة الجنوبية الشرقية، الطبعة الأولي، سنة ٢٠١٣م

15 انظر إلي موسوعية الفلسفة الصينية ،الصفحة ٣ والصفحة ٨٧

16 مملكة أسرة شِيآنغ، تمتد سيطرته من أوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد إلي الثلث الأخير للقرن الأحد عشر قبل الميلاد.وكان مؤسسها الملك تَانغ يُعتبر عند كونفوشيوس ومذهبه قدوةً حسنة من صفوف الملوك والحكماء السلف الصالحين.

17 انظر: سفر الوثائق. الصفحة٢١٥– ٢١٨

18 يُعدّ سفر التبدلات أهمّ الينابيع التراثية المقدَّسة في الكِهانة و أسرار الكون وهو في غاية الغموض والإشكال. وكان كونفوشيوس يحبّ هذا الكتاب حبّا جمّا لموسوعيته الميتافيزقية والفلسفيية، وخاصّةً في شيخوخته أكثَر قراءة له وتعمَّق في دراسته حتّي تفككت خيوط تجليده عدّةَ مرّات بسببها، وقد فسّره في أواخرعمره وعلّقه بتبيين عباراتها المجملة وتفصيل كلماته المبهمة. وذلك كما قال بنفسه مدحا لأهمية هذا الكتاب وهو ابن سبعين من عُمره قائلا: " لوْ ازداد لِي بضع سنين لأتمّم دراستي كتاب التبدلات، لأمكنني أن أسلم من الأخطاء الكبيرة."

19 فكرة الرحمة: وكانت فكرة الرحمة جامعة الأخلاق والفضائل عند المذهب الكونفوشيوسية، وهي المثل الأعلي في تحقيق الإنسانية الكاملة، فاهتمّ بها كونفوشيوس غاية الاهتمام وأسّس عليها نظرياته الفلسفية والاجتماعية. ونجد كثيرا ما يتحدثّ عن فكرة الرحمة في كتابه الحوار ويؤكّد أهميتها في مثالية الإنسانية حتي قال: " الرجل ذو الهمة والرحمة لاينقص رحمته لقصد حياته، بل يضحى نفسه للدفاع عنها." كما أشار إلى هِمم ألإنسان الفاضل قائلا: " اعقد عزيمتك علي طريق الحق، وحافظ علي الفضائل، واعتمد علي الرحمة، وسلِّ نفسك بالفنون الستّة." وهذه هي فكرة الرحمة بصفتها جامعة الأخلاق والفضائل، تتمثل بالناحية الباطنة لطريق الحق عند مذهب الكونفوشيوسية.

20 المبادىء الخمس العامة: الأول– العلاقة بين الحاكم ووزراؤه بالاحترام والوفاء، الثانى– العلاقة بين الأب وابنه بالرأفة والبرّ، الثالث– العلاقة بين الأخ وأخيه الصغير بالّطافة والتواضع، الرابع– العلاقة بين الزوج وزوجته بالعدل والطاعة، الخامس– العلاقة بين الصديق وصاحبه بالمودّة والعون. وكلّ هذه اللأصول الثلاثة الكبرى والقواعد الخمس المعتمدة ترافق الإنسان مع تهذيب نفسه بالورع الذاتي والإخلاص الوجداني، فى سبيل إكمال شخصيته والعودة إلى فطرته السماوية.

21 سفر الآداب، الفصل ١٩ الصفحة ٢٥٣

22 كتاب الوسطية والاعتدال والفصل الثلاث وثلاثون.

23 يدعّى الكتاب بالسياسة الرحيمة ويدعو إلى رعاية الحاكم رعيته بالأخلاق الحميدة. فعلى الحاكم أن يهذّب نفسه بمكارم الأخلاق أولّا، ويولّى رجالا صالحين أكفاء فى إدارة شؤون البلاد ثانيا، ويدعو رعيته إلى الأخلاق الحميدة ويعدّلهم بنظام الآداب ثالثا، حتى يستقيد الشعب تحت ظلّه لأوامره سمعا وطاعة ويجتمع إليه أقوام من جار جنب احتراما ومودّة. وذلك كما يذكر فى النصّ: " يستحقّ لكلّ حاكم أن يتبع تسع قواعد أصولية فى إدارة دولته ورعاية شعوبه، وهي: 1– تهذيب الحاكم نفسه قدوة، 2– واحترام الصالحين والفضلاء شرفا، 3– والمراعاة بصلة الرحم تقرّبا،4– وتكريم الوزراء المعتمدين عزة، 5– وتقدير خدمة الموظفين العوّام تسامحا، 6– ورعاية شؤون الرعية الجماهير رحمة، 7– وتجنيد

عمال الحرفة والصناعة تعاونا، 8- وضيافة الوافدين والرسل الأجانب إكراما،9- وموادّة الأمراء في أنحاء البلاد بالسياسة الرشيدة تسليما.

24 تس كونغ، المتوفي سنة ٤٥٦ق.م، كان من أشهر تلاميذ كونفوشيوس بالذكاء والآداب

25 كتاب الحوار بشرح جو شي، الفصل ٥، الصفحة ٤٣

26 كتاب القلب والفطرة، مو زنغ سآن، الجزء 1، الصفحة ١٨٧، مطبع الكتب التراثية بشيآنغهاي، الطبعة الأولي ١٩٩٧م

27 موسوعية الفلسفة الصينية، الصفحة ١٩٥- ١٩٧.

28 كان اتجاه نظرية العقلية أكثر نشرا وأقوي نفوذا من قرينه الآخر، من حيث اتخذه السلطة والحكومة اتجاها رسميا في مجال الفكرة والميتافيزقا، وجعلتْه خطّا رئيسيا في مناهج التعليم والتربية ومقياسا وحيدا لاختيار الموظفين الحكوميين منذ أواخر القرن الحادى عشر إلى بداية القرن العشرين. وأما اتجاه نظرية القلبية فهي اتجاه فكري يميل إلي العلم الباطن والكشف الوِجداني أكثر وأعمق، فلم ينل مكانة رسمية عند السلطة والحكومة كقرينه الآخر. وقد نضج اتجاه نظرية القلبية كاملا في عهد العلامة "وانْغ يآنغ مِينْغ " (١٤٧٢م- ١٥٢٨م)

29 سورة الزخرف، ورقم الآية 84.

30 رواه المالك فى الموطأ، برقم 3622. وقد صحّحه الألباني.

31 كتاب الوسطية والاعتدال، الفصول 16، 18، 19، 24، 29

32 سورة اللقمان، رقم الآية 25

33 رسالتى المتواضعة لنيل درجة الماجستير " الفرد والمجتمع فى الكونفوشيوسية- دراسة نقدية فى ضوء الإسلام"، الصفحة 142- 144